واشنطن إرفنج

Washington Erving

كتاب «حياة محمد»

واشنطن إرفنج مؤرخ أمريكى عاش فى القرن الماضى . ولد سنة ١٧٨٣ ، وبدأ التأليف والبحث سنة ١٨٠٦ ، ثم أصبح وزيرا مفوضا فى أسبانيا ما بين ١٨٤٢ ، ١٨٤٦ ، وهناك اطلع على تراث الحضارة الإسلامية فمال إليها ، وراح يكتب عن التاريخ الإسلامى ، فكتب ترجمة لحياة الرسول ﷺ كما ترجم للخلفاء الراشدين . وتوفى إرفنج فى أمريكا سنة ١٨٥٩ [١] .

* * *

يقع الكتاب فى ترجمته العربية التى قام بها الدكتور على حسنى الخربوطلى ونشرتها دار المعارف بالقاهرة (الطبعة الثانية ١٩٦٦) فى ٣٢٤ صفحة من القطع الصغير . ويحتوى على تسعة وثلاثين فصلا وخاتمة عدا مقدمة المترجم ومقدمة المؤلف ، بيانها كالتالي :

١– مذكرات تمهيدية عن الجزيرة العربية والعرب
٢– مولد محمد
٣– روايات عن مكة والكعبة
٤– الرحلة الأولى إلي الشام
٥– اشتغال محمد بالتجارة
٦– محمد بعد الزواج
٧– نشر الدعوة
٨– أسس العقيدة الإسلامية
٩– محمد والكفار
١٠– وثيقة المقاطعة
١١– عام الحزن
١٢– الإسراء
١٣– الهجرة
١٤– المهاجرون والأنصار

---

(١) عن مقدمة المترجم بإيجاز .

١٥- رواج محمد من عائشة ١٦- الجهاد

١٧- غزوة بدر ١٨- محاولة لاغتيال الرسول

١٩- محمد واليهود ٢٠- موقعة أحد

٢١- خيانة اليهود ٢٢- حادثة الإفك

٢٣- حرب الخندق ٢٤- حروج الرسول إلي مكة

٢٥- فتح خيبر ٢٦- كتب الرسول إلي الأمراء والملوك

٢٧- محمد يحج إلي مكة ٢٨- معركة مؤتة

٢٩- مكة تنقض معاهدة الحديبية ٣٠- فتح مكة

٣١- معركة حنين ٣٢- فتح الطائف

٣٣- الاستعدادات لحرب فى الشام ٣٤- عودة المنتصرين إلي المدينة

٣٥- سورة براءة ٣٦- حجة الوداع

٣٧- النبيان الكاذبان : الأسود ومسيلمة ٣٨- وفاة الرسول

٣٩- شخصية محمد : الإنسان والرسول.

أما الخاتمة فعنوانها : « دراسة للعقيدة الإسلامية » .

* * *

لا يحتاج هذا الكتاب منا إلي تعليق طويل !

لقد كنت سمعت كثيرا عن هذا الكتاب قبل أن أقرأه .. وكان ما سمعته مديحًا جمًا للكتاب وصاحبه ، على أنه من خير ما كتب عن الرسول ﷺ من كاتب غير مسلم .

وعلي هذا الأساس بدأت أقرأ ..

ووجدت في مقدمة المترجم ما كنت قد بدأت أتعود عليه من عبارات المديح التى رأينا نماذج منها فى ترجمة كتاب « فلهوزن » وكتاب « جرونيباوم » ، ولكنى قلت فى نفسى ربما كان الأمر حقا هذه المرة !

يقول المترجم فى « تقديم الطبعة الثانية » صفحة (١٣) : « ولا يزال كتاب واشنجتون [١] إرفنج عن « حياة محمد » فى مقدمة الكتب التى تتناول دراسة حياة الرسول ﷺ ، فى العالم العربى ، وفى القارتين الأوربية والأمريكية ، برغم صدور عدد من المؤلفات التى تدرس السيرة النبوية باللغة العربية واللغات الأخرى، وقد لمست أهمية هذا الكتاب بوضوح أثناء قيامى بتدريس التاريخ الإسلامى في كل من جامعتى القاهرة وعين شمس ، وفى فرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، وخلال زيارتى للجامعات فى القارة الأمريكية فى عامى ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، وفى أثناء قيامى بتدريس التاريخ الإسلامى فى معهد الدراسات الإسلامية التابع لجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال فى كندا ، إذ تعتبر أسرة المعهد هذا الكتاب في مقدمة المصادر التى تعتمد عليها فى دراستها للعقيدة الإسلامية وسيرة الرسول ﷺ .

ويقول فى « مقدمة المترجم » صفحة (١٥ – ١٦) : « يكاد يكون إرفنج أول مؤرخ أمريكى اهتم بالدراسات العربية والإسلامية وترجمة حياة محمد وخلفائه اهتماما كافيا . وتعتبر ترجمته لمحمد من أوفى وأدق وأصدق التراجم التى كتبها مؤرخون مستشرقون ، ليسوا بالعرب أو بالمسلمين . فقد اهتم بجمع الحقائق التاريخية ، وعرضها عرضا شائقا ، فى أسلوب جميل واضح ، وابتعد عن القدح والتعريض والألفاظ النابية والروح الصليبية التى نجدها فى مؤلفات بعض المستشرقين مثل : ميور ، سبرنجر ، درمنجم ، لامنس ، فيل ، وغيرهم . ناقش إرفنج الحقائق التاريخية مناقشة هادئة منطقية بعيدة عن التعصب ، بل هو يسوق المديح للرسول دائما ، ويمجده ويثنى عليه . نجد ذلك واضحا فى الفصل التاسع والثلاثين الذى تناول فيه شخصية محمد : الإنسان والرسول . كما أنه شرح العقيدة الإسلامية شرحا ينم عن روح طيبة معتدلة . ولا آخذ على إرفنج إلا عطفه أحيانا على اليهود ، برغم أنه يعدد مواقف الغدر والخيانة التي وقفوها من الرسول . وقد قمنا بواجبنا نحو الرد على أراء المؤلف التى قد تخالف وجهة النظر الإسلامية والعربية فى حواشى الكتاب ....

* * *

(١) اخترنا كتابة الاسم كما ينطق « واشنطون » لا كما تكتب حروفه « واشنجتون » .

وأما أن المترجم قد رد على بعض آراء المؤلف فهذا صحيح . .

وأما أن الكتاب يصلح أن يكون مرجعا لقارئ مسلم ، فضلا عن أن يكون مرجعا « جامعيا » وفى الجامعات العربية . . وأما أن يكون إرفنج قد ناقش احقائق التاريخية مناقشة هادئة منطقية بعيدة عن التعصب ، وأنه يسوق المديح للرسول دائما . . أما هذا كله فأمر أقل ما يقال فيه إنه يعوزه الدليل !

قد يصلح الكتاب مرجعا سريعا مبسطا للقارئ الغربى الذى لا تتاح له قراءة المراجع العربية ، والذي لم يطلع على السيرة النبوية فى مدرسته الابتدائية والثانوية، والذي لم يحضر قراءة السيرة ولا سمع شيئا منها يتداول فى المساجد فى مناسبات معينة ، فهو لا يعرف عنها شيئا أصلا ، ومن هنا يكون كل حرف فى الكتاب جديدا عليه ، ومهما عنده ، إذا كان يريد الدراسة والاطلاع اموجز السريع .

أما القارئ المسلم ، والعربى بصفة خاصة ، الذى درس السيرة ولو مختصرة فى المدرسة الابتدائية والثانوية ، وسمع حديثها فى خطب المساجد ، أو الاحتفال بالهجرة أو غيرها من المناسبات ، فما أقل ما يجد فيها مما يعتبر جديدا عليه . . إلا موقف المؤلف من حقائق السيرة وحقائق الإسلام !

على أننا نتجاوز عن هذه فليست هى موضع اهتمامنا فى هذا الكتاب .

إنما الذى ينبغى لنا التعليق عليه هو قول المترجم إن مناقشة إرفنج بعيدة عن التعصب ، وإنه يسوق المديح للرسول دائما . . فهنا يدخل الأمر فى صميم موضوعنا الذى أنشأنا من أجله الكتاب . .

* * *

فى ظاهر الأمر قد يبدو لك أن الكاتب عادل كل العدل ، نزيه كل النزاهة ، ممتدح كل المدح !

ولكن كيف !!

إنه يسجل كل ما يقوله المؤرخون المسلمون وكتّاب السيرة فى أكثر من

مناسبة فى ثنايا الكتاب .. فماذا تريد منه أكثر من ذلك ! أليس يسجل لك وجهة نظرك أنت فى الموضوع بوصفك قارئا مسلما متشبعا بحقائق معينة ؟!

ولكن دعنا ننعم النظر قليلا فى هذه الوسيلة الخداعة !

إنه يسرد سرده الخاص للحادثة او الموقف أو الحقيقة التى هو بصددها . ثم يقول لك : « ويقول الكتّاب العرب ... »

فماذا بالله تحس وأنت تقرأ الأمر على هذه الصورة ؟!

أهو مجرد المقابلة « العلمية » ، أم هو الإيحاء بأن سرده هو الصحيح .، وأن ما يقوله « الكتاب العرب » هو وجهة نظر غير مستساغة ، تورد — فى الحقيقة — لدحضها لا لإثباتها ، ولكن عن طريق الإيحاء لا عن طريق التصريح ؟!

خذ مثلا من صفحة (٤٨) ، بعد أن أورد قصة لقاء الرسول ﷺ فى رحلته إلي الشام بالراهب النسطورى « بحيرى » :

« ينسب الكثيرون معلومات محمد عن الدين المسيحى إلي محادثاته مع ذلك الراهب ، وقد لعبت هذه المعلومات دورا كبيرا فى حياة محمد فيما بعد » .

« ينسب الكتاب المسلمون اهتمام الراهب بهذا الشاب الغريب إلي أنه لاحظ بين كتفيه خاتم النبوة ، ولذا طلب من عمه أبى طالب أن يحافظ على ابن أخيه عند عودته إلي مكة حتى لا يقع فى أيدى اليهود فيروا خاتم النبوة فيوقعون به الأذى » .

« يبدو أن ذلك الراهب الحريص على التبشير بدينه قد توسم الخير فى هذا الشاب الذكى ، ابن أخى سادن الكعبة ، ورأى أنه خير من يحمل بذور المسيحية إلي مكة ، ومن الطبيعى أن يحرص هذا الراهب على أن يمنع ذلك الشاب ، الذى قد ينجح فى تحويله إلي المسيحية ، من اعتناق اليهودية » .

« عاد محمد إلى مكة ، وقد تأثر خياله بالقصص والروايات التى سمعها فى الصحراء ، وبأحاديث ذلك الراهب النسطورى ... » .

أرأيت ؟!

لقد أورد الكاتب وجهة النظر الإسلامية ولا شك ... ولكن أين هو منها ؟ في جانب التصديق والإثبات ، أم في جانب التشكيك ؟!

بل أيهما أكثر تشكيكا ؟! لو أنه لم يورد الرواية الإسلامية أصلا ، أم حين أوردها ثم مال عنها إلى غيرها من الروايات ؟!

* * *

وخذ مثالا آخر أكثر صراحة ووضوحا ، في صفحة (٩٨ – ٩٩) في الحديث عن إخبار القرآن بتغلب الروم بعد انهزامهم ، يقول :

« .. وفرح القرشيون الوثنيون لهزيمة البيزنطيين المسيحيين ، فقد كانت المسيحية تهاجم الوثنية ، وقد عدوا انتصار الفرس فألا حسنا إذ ظنوا أن انتصارهم على محمد سيكون وشيكا . ولكن محمدا رد على مزاعمهم بترتيل آيات من السورة الثلاثين : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الروم: ١ – ٥]. راهن أبو بكر ، صديق الرسول المخلص ، بعشرة من الإبل على أن النبوءة ستتحقق في خلال ثلاث سنوات ، ولكن الرسول طلب منه أن يزيد قيمة الرهان ويطيل المدة التي حددها . فجعل أبو بكر الرهان مائة من الإبل وجعل المدة التي يحددها لتحقيق نبوءة انتصار الروم تسع سنوات ، وتحققت النبوءة فعلا وكسب أبو بكر الرهان . هذه القصة يذكرها العلماء المسلمون لإثبات أن القرآن إنما يوحى به من السماء ، وأن نبوة محمد صادقة . هذه القصة إن كانت قد حدثت فعلا ، إنما هي تنبؤ بأحداث المستقبل بناء على إدراك لمدى قوة القوى المتصارعة » !!

فأما حين يورد روايات أسطورية ، وينسبها إلي الكتاب المسلمين ، كما يصنع كثيرا في القسم الأول من الكتاب بصفة خاصة ، فهو لا يقوم بالتشكيك

فقط ، بل يقوم بما هو أسوأ من ذلك ، وهو إثارة السخرية بالرواية الإسلامية عن سيرة الرسول ﷺ .

خذ مثالا لذلك من صفحة (٣٧)، وهو يتحدث عن طفولة الرسول ﷺ .

« يروى المؤرخون العرب الكثير عن قوة هذا الطفل البدنية والروحية ، فى هذه السن المبكرة ، فقد استطاع أن يقف على قدميه وعمره ثلاثة أشهر ، واستطاع الحبو حينما أتم سبعة أشهر ، حتى إذا أتم عشرة شهور استطاع أن يشارك الأطفال الآخرين فى رياضتهم واستخدام القوس والسهم ، واستطاع الكلام والفهم وعمره ثمانية أشهر ، وبعد شهر تكلم بطلاقة وحكمة أدهشت الآخرين »!!

* * *

ونضرب صفحا عن ذلك كله لنقدم الحصيلة النهائية لكتاب إرفنج عن حياة الرسول ﷺ .

لقد امتدح الرسول ﷺ وأثنى على شخصيته وأخلاقه وأفعاله ثناءً غير قليل . . . ولكن مَن منهم لم يفعل ذلك ؟! إن شخصية الرسول ﷺ من العظمة بحيث تفرض نفسها حتى على أعدائها وكارهيها . فقد كان مشركو مكة أنفسهم – على كل عداوتهم للرسول ﷺ – لا يجدون مطعنا فى خلقه ولا شخصيته ، ويقرون له بالفضل . .

إنما الذى يهم حقيقة هو ما يقوله هذا الكاتب أو غيره من مطاعن ظاهرة أو خفية بعد هذا المديح ! فماذا ذكر إرفنج من هذه المطاعن ، أو قل – على الأصح – ماذا أبقى إرفنج من المطاعن لم يذكره ، فى ثنايا هذا المديح الغزير ؟!

لقد ذكر قصة إصابة الرسول ﷺ بالصرع (فى صدد تفسير ظاهرة الوحى !) حيث قال فى صفحة (٦١ – ٦٢) ، تحت عنوان « حاشية للمؤلف » :

« ناقش الدكتور جوستاف ويل فى بحث بعنوان Mohammed der prophet مسألة تعرض محمد لحالات من الصرع ، وهى المسألة التى يثيرها خصومه من كتاب المسيحيين، ويبدو أن بعض المؤرخين المسلمين القدامى قد أيدوها . . . »!!

وذكر قصة الراهب بحيرى التى أشرنا إليها من قبل فى صفحة (٤٨) .

وذكر – تلميحا أو تصريحا – أن القرآن من كلام الرسول ﷺ وأنه نقل عن اليهودية والمسيحية حيث قال فى صفحة (٥٦ – ٥٧) :

« .. ذلك هو ورقة ابن عم خديجة ، وكان رجلا ذا أفق واسع وإيمان صادق، وكان فى الأصل يهوديا ثم اعتنق المسيحية ، وكان يجيد أعمال الفلك والتنجيم . ويرجع له الفضل فى ترجمة بعض أجزاء الكتب السماوية إلي اللغة العربية ولا شك أن محمدا قد اطلع عليها واستفاد مما جاء فيها .

« رسبت هذه المعلومات فى ذاكرة محمد ، وأدت إلى الابتعاد عن الوثنية المنتشرة حينئذ فى بلاد العرب ... صار محمد أكثر تفهما واحتقارا للوثنية ، فقد أدرك أن هناك قوى روحية . وفى القرآن كثير من الآيات تبين الأفكار التى دارت فى ذهنه ، وكيف نمت وأثرت فى تصرفاته ... » !!

وذكر فى صفحة (١٧٧ – ١٧٨) القصة المكذوبة عن رغبة الرسول ﷺ فى زواج زينب بنت جحش لإعجابه بها حين وقع بصره عليها فى غيبة زوجها زيد، واضطرار زيد أن يتنازل له عنها رغم حبه لها !!

وقال فى صفحة (١٩٥) ، وهو يتحدث عن اختيار الرسول ﷺ سعد بن معاذ ليحكم فى أمر بنى قريظة بعد غدرهم :

« عامل محمد اليهود معاملة تنطوى على القسوة ، فقد جعل مصيرهم فى يد رجل قاس ، ولذا نعتبر تلك المذبحة التى شهدتها سوق المدينة نقطة سوداء فى تاريخ محمد . وفى الحقيقة يعتبر موقف الرسول من هذا الجنس ، منذ أن أصبحت السلطة والنفوذ فى يده ، يخالف ما نعرفه عنه من رحمة وإنسانية . وقد يكون الرسول مدفوعا إلي ذلك بما ظهر من اليهود من غدر وخيانة وحقد ، ولكننا نلاحظ أن محمداً في بعض مراحل حياته كان رسول السيف » !

وقال فى صفحة (٢٩٦) :

« ... سمح الرسول لنفسه بأن يتزوج عددا أكبر من العدد الذى يسمح به لغيره من المسلمين ، حتي ينجب لقومه جيلا من الأنبياء » !!

وأخيرا يتقدم بهذا السؤال الذى هو عقدة الكتاب كله فى الحقيقة فيقول فى صفحة (٢٩٧) :

« والسؤال الآن : هل كان محمد نبيا صادقا ؟ هل كان الوحى والدين الذى دعا إليه حقيقة واقعة ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال ، نقول إن كثيرا من المسلمين نسبوا إلى الرسول كثيرا من المعجزات والأعمال الخارقة ، فى حين أن الرسول كان ينفى دائما أن له معجزات عدا القرآن الكريم الذي نزل به الوحى من السماء ، فهو يعتبر معجزته الكبرى » .

وإلى هنا يتضح لنا جيدا أنه قدم السؤال ثم لم يجب إجابة مباشرة عليه ، وإنما أحال الإجابة على القرآن ... ويتضح لنا كذلك أن حكمه على القرآن هو فى ذات الوقت حكمه على صدق نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته .. فبأى شئ حكم على القرآن ؟!

يقول بعد ذلك مباشرة :

« وهنا علينا أن نذكر بعض الملاحظات على هذا الكتاب الشهير ... ينتقد البعض سور القرآن بأن ليس لها ترتيب أو منهج ، ويعيبون على القرآن أنه ممتلئ بالغموض ، وعدم التناسق ، والتكرار ، ونقل بعض قصص الإنجيل ، والتناقض . ويرى البعض أن القرآن الموجود فى الوقت الحاضر ليس هو القرآن نفسه الذى لقنه محمد للمسلمين إذ دخل عليه بعض التحريف ... »

أرأيت ؟!

ماذا خرجت به إذن من هذا الكتاب ؟ هل هو تصديق نبوة النبى ﷺ ؟

ثم يقول فى صفحة (٣٠٠) :

« دخل علي قصة حياة الرسول كثير من الأساطير ، مما يجعل من الصعب الحكم علي شخصية الرسول وأخلاقه ... » !!

وبهذه وتلك يختم المؤلف كتابه الذى كتبه « يمتدح » به الرسول ﷺ ، أو الذى يبدو – فى عين كثير من المسلمين – أنه كتاب مديح !!!